ثالثاً: تعليقات ومناقشات

ردّ على بحث:" المصطلح التربوي النفسي: تقييم لا تقويم"

لمباركية نوّار-باتنة (الجزائر)

قرأت البحث الذي أنجزه الدكتور سبع أبو لبدة، وتولّت مجلتكم الغرّاء، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني نشره إمتاعا للقراء المهتمين في عددها الثاني والستين(كانون الثاني- حزيران٢٠٠٢)، وهو البحث الموسوم بـ:(المصطلح التربوي النفسي: تقييم لا تقويم).

وأظن أن الدكتور سبع أبو لبدة أحسن الاختيار لمّا تصدّى، وبنفس توّاقة لهذه المشكلة الكؤود، وحاول جهد استطاعته تخليص المربين العرب من هموم مسألة مؤرّقة، شقت واستعصت، وصغرت عنها العيون والآذان، وتجانفت عنها الأقلام. فمثل هذه الأبحاث التي تتوغل في شعاب فقه معرفة المفاهيم والمصطلحات العلمية وفجاجها، وتستقصي استقصاءً حفيًا عن جذورها، ورحلة تطوّرها الدّلالي، فمثلها يكاد يكون مهجوراً ومتعففاً عنه، مما جعل الالتباسات تتسع وتستمدّد، والأخطاء تشيع وتستفحل، حتى أصبح القوم عندنا ينامون على هدهدات أرجوزة مفادها:(خطأ شائع خير من صواب مهجور أو مجافى)!. ولم تثر القضية عند الكثيرين مشغلة وقلقا وحيرة لخدمة اللغة العربية، وترقيتها.

وحينما انكببت على قراءة البحث المذكور قراءة شغوفة بسبب مفعول جاذبية عنوانه، استوقفتني عدة ملاحظات تفرقت بين منهجية ومعرفية. وإذ أتشجع على جمعها وسردها، فإنني لا أحسبها تغدر أو تطمس أو تقلّل من مجهود الدكتور سبع أبو لبدة، أطال الله أنفاسه الكتابية في مجال البحث العلمي التربوي، وهو مجهود يستحق التنويه إقراراً، والإشادة إلزاماً، وإذ أردف إليكم

بملاحظاتي المتواضعة، فإنني لا أراها موقّرة ومنزهة. وآمل أن تحتضن بقلوب مفتوحة، وأنْ تقوّم إذا ضمت اعوجاجا، وتزال الغواشي عنها إن حوت هفوات.

فـــأولاً؛ أرى بـــأن العـــنوان المقترح، والمتوّج للبحث:(المصطلح التربوي النفسي: تقييم لا تقويم)؛توشّح بإقرارية شبيهة بالأحكام المسبقة، ومباغتة للقارئ، ممـــا يفـــرض علـــيه أن يكون قارئاً مستسلماً، وغير محرّض لبلورة رأي حول الموضـــوع المناقش. فالعنوان الذي جمع بين الإثبات من جهة أولى، والنفي من جهة ثانية في هيئة حكم فيصل لا يحوصل مقصد البحث، ولا ينير بعض دروب مـــشكلته. ويمكـــن أن يعـــدّل العـــنوان، وحسب مقترحي، ليأخذ الشكل الآتي: (المصطلح التربوي النفسي: أهو تقييم أم تقويم؟).

وهـــذه الـــصيغة الاستفسارية التي ستفتح شهية القارئ، لا تُخلّ بالرصانة الأكاديمية ما دام الموضوع كتب لينشر في دورية (مجلة).

وثانـــياً؛ فـــإن الجزء المخصص في البحث للتعريج على الدراسات السّابقة التـــي تعرضـــت للمشكلة المعالجة أو لمثيلاتها انساق فيه الباحث وراء التّعميم، حتى خُيّل للقارئ بأنّه يتقصّى قضية المفهوم LE CONCEPT بصورة عامة. وتؤكد الاقتباسات المستخلصة من الكتب للاستدلال والتحجج ذلك (انظر الصفحة ١١١). وإضـــافة إلـــى التعميم، هناك الاسترسال ملاحقة لأمثلة مفاهيمية تكاد لا تذكـــر صـــلتها بالموضوع. وفي رأيي، لا يجوز إقحامها حشواً ضمن ما صدق المفهـــوم(الماصـــدق بلغة الأقدمين، ويقابله حالياً في لغتنا الحديثة كلمة الأمثلة LES EXEMPLES، أي الأمـــثلة التي تصدق على المفهوم). وفضلا عن هذه وتلـــك، فإن الباحث، ولربما نسيانا إحسانا للظن، لم يذكر أو يلمّح مجرد التلميح إلـــى الـــبحوث الأجنبية ذات العلاقة المتقاطعة بمادة بحثه، وتجد هذه الملاحظة

مسوّغها قائماً في كون مشكلة البحث تتخطى حدود اللغة العربية، وينص منطوقها على ما يأتي: (ما المصطلح المناسب لترجمة كلمة EVALUATION ...؟ وأضيف، فلو استعملت لفظة " تعريب" عوض كلمة "ترجمة" لزادت المشكلة وضوحاً.

وثالثاً؛ تطرح قضية صوغ المشكلة التي أنهيت بها الملاحظة المتقدمة أسئلة واستفسارات عميقة، من قبيل: هل موضوع البحث حبيس اللغة العربية؟ أم يتجاوز تخومها إلى لغات أجنبية أخرى؟(لكلمةEVALUATION معنى واحد في اللغتين الإنجليزية والفرنسية). وهل القضية، في صلبها وجوهرها، تثير إشكالا في التعريب أم في الاشتقاق؟. ولا يتهيأ لي، بأن مثل هذه المتاءمات ستجنب لغة الضاد حمل جرائر اللّغات الأجنبية الأخرى.

ورابعاً؛ يقول الباحث في السطور المنضوية أسفل شبه العنوان:" أهداف البحث": (تهدف هذه الدراسة إلى صياغة مفهوم تربوي عربي معادل لكلمة EVALUATION...) وما دام المفهوم موجوداً، ومتداولاً منذ عهود، فإذن، كيف تعاد صياغته اشتقاقا أو مجازاً أو تعريباً أو نحتاً؟ ولعل الصواب، أن يقال اختصارا: تقدير أي اللّفظتين أصوب في اللسان العربي، التقييم أم التقويم؟ ومن جانب آخر، فإن المفاهيم العلمية عالمية، والتحيّز الذي يشتم من العبارة: (مفهوم تربوي عربي) فيه حبس وتضييق، وانكفاء على الذات، وانصراف عن الموضوعية.

وخامساً؛ يرادف الباحث في مواضع من بحثه بين لفظتي مفهوم CONCEPT ومصطلح: TERM (TERME بالفرنسية) كما في الصفحة ١٠٩ وغيرها. ويتجرأ على الإدلاء بقاعدة خاصة به، إذ يدوّن

مـــا يأتـــي: (يـــستعمل الـــباحث كلمة مصطلح بمعنى مفهوم أو مدرك كلي في العربية وما يقابل TERM أو CONCEPT...) فهل يجوز لنا أن نقيم شرائع، ونطالـــب الآخـــرين بالاحتكام إليها؟ ومحواً لظلال الغموض، استحضر الفقرتين المقتبستين الآتيتين: إذ نقرأ في الأولى: (يعرف الفلاسفة المفهوم بالكيفية الآتية: (فكـــرة عامـــة ومجرّدة، تسمح بتصنيف الكائنات أو الأشياء، وتشتمل على فهم COMPREHENSION وامتداد EXTENTION.

إنه تعريف كامل، ومع ذلك فإنّه غير إجرائي إلى حدّ بعيد بالنسبة للمدرس عندما يتعلق الأمر بالتعرف على مفهوم ما. ونصادف فيه العناصر التي يدعوها ج. برونير G.BRUNER، وبشكل مغاير قليلا في تعريفه كما يأتي:

- بطاقة = تسمية،

- مواصفات= صفات أساسية،

- أمثلة.

ولكـــي تكـــون " كلمـــة" مفهـــوماً، يجـــب أن تكون هذه العناصر ممكنة الإظهار)[1].

فـــي حـــين نقـــرأ فـــي الاقتباس الثاني: (فاللّفظة الأجنبية المقابلة لكلمة المـــصطلح، وهـــي TERMانحدرت من اللفظ اللاّتيني TERMINUS، الذي

1- Brith-Mari Barth- les dossiers du C.E.P.E.C- No10-Decembre 1981-page12

معـــناه الحد. وبالمزج ألفت كلمة TERMINOLOGIE التي تعني العلم الذي يستطيع وضع الحدود للمفاهيم) [٢].

وانطلاقـــا ممّـــا تقـــدّم، إن أُحسن تمثله، فإن التّعلّم، التعليم والتدريس هي مفاهـــيم، ولـــو قوبلت بتعريفات تركيبية لأجرأتها. وعلى خلاف المصطلح، فإن المفهـــوم قابل للنمو والاتساع في مجالات البحث العلمي، أو في أذهان المتعلمين مسايرة لتطور قدراتهم، ودرجة شحذها.

وسادســـاً؛ ورد فـــي الصفحة ١١٧ ما يتبع: (يوجد في اللغة الدّارجة أو المحكية مصطلحان هما تقويم وتقييم، والثاني أكثر شيوعا وجرياناً على الألسن، والعـــوام عـــادة يفـــرقون بينهما في الاستعمال، ولا يستعملونهما كمترادفين، بل يستعملون" تقويم" بمعنى تصحيح الاعوجاج، و"تقييم" بمعنى تثمين الشيء أو بيان قيمـــته...). وإذا كان البحث ينزع إلى مجاراة الأكاديمية، فلا أظن جواز نزوله إلى اللسان الشعبي المضطرب والمشوش، واستخباره في شأن قضية شائكة.

وزد على ذلك، أن اللهجات الشعبية محلية، ومحدودة التداول، وكل جماعة انفـــردت بلهجـــتها، ودرج لـــسانها عليها. ونحن، من باب التمثيل، في المغرب العربـــي، وفـــي الـــشرق الجزائري تحديداً، نخالف في دارجتنا ما نصت عليه الفقـــرة، إذ نوظـــف كلمـــة " "تقويم" بمعنى تقدير مادي أو معنوي. وإذا اختلف متخاصـــمون حـــول مقدار أو جودة سلعة أو بضاعة تنادوا: (تعالوا نقوّمها، أي نقـــدرها وزنـــاً أو ثمناً). ولا نصادف بتاتا لكلمة" تقييم" أي استعمال في مثل هذه

---

٢. مـــرتاض عبد المالك (دكتور)- صناعة المصطلح في العربية- مجلة " اللغة العربية" للمجلس الأعلى للغة العربية(الجزائر) – العدد الثاني- ١٩٩٩- الصفحة ١١.

الـــسياقات. واعتـــبارا لما ذكرت، يتبيّن لي، بأن دمج هذه النقطة في هذا البحث بالذات مضر باللغة العربية الفصحى، ومشكك في غناها وخصوبتها.

وســـابعاً؛ لاحظت انتقائية وفرزاً محبكين في بعض سطور الصفحة ١٢٠. وإشكاليات البحث العلمي لا تفض بِعَدِّ كثرة المناصرين أو المناوئين، والعدد في هـــذا الشأن ليس معياراً للقياس، وإلاّ أصبح الأمر سجالاً بين المكثرين والمقلين مـــن اســـتعمال هـــذا المفهـــوم أم ذاك. والقول بأن كثيراً من الرواد التربويين اســـتعملوا " التقيـــيم " بمعنـــى بيان قيمة الشيء أو تثمينه، "حجة " غير مريحة و" إثـــبات " غيـــر مقنع. لأنه وفي المقابل هناك من المربين العرب من استعمل كلمـــة " تقـــويم" بالمعنى نفسه عن إدراك ووعي، وعددهم أكثر من كثير، وفي الإمكان ذكر عيّنة من إخواننا المربين المشرقيين ناهيك عن المغاربة، ومنهم:

– الدكـــتوران يوســـف ونايفة قطامي في كتابهما: نماذج التدريس الصفي.

– الدكتور جابر عبد الحميد في كتابه: استراتيجيات التدريس،

– الدكتور سعيد بامشموش وآخرون في كتابهم: التقويم التربوي،

– الدكتورة رمزية الغريب في كتابها: التقويم والقياس في المدرسة الحديثة،

– الدكـــتور أحمـــد حـــسين اللقاني في كتابه: المناهج بين النظرية والتطبيق،

– الدكـــتور رشـــدي طعيمة في كتابه: مناهج تدريس اللغة العربية بالتعليم الأساسي.

– ...إلخ.

ويمكن لهذه القائمة أن تطول متعززة بأسماء وعناوين أخرى.

وثامناً، إذا كان " قوّم " معناه أصلح اعوجاجه، ودرأ عيوبه، وجبر نقائصه. فكيف يحصل ذلك افتراضا إذا لم يكشف عن مراقد الاعوجاج والعيوب والنقائص؟. أفلا يُرى بأن التقييم مندس ومندفن ضمنيا في التقويم الذي يتصف بالرحابة والشمولية؟. وأعطف على ذلك، أن التقويم أرسخ وأقدم طالما أن أمهات المعاجم العربية العتيقة لا تذكر في بطونها سوى مادة (ق و م).

وتاسعاً؛ وبدت لي في نتيجة البحث أو في فذلكته (والفذلكة تقويم، ففذلك حسابه أي أنهاه وفرغ منه، وهي مخترعة من قول الحاسب إذا جمل حسابه فذلك كذا وكذا إشارة الى حاصل الحساب ونتيجته...)، بدت لي بعض الألفاظ الحادة والأحكام القطعية. ويا حبذا لو استبدلت بها نظائر ألطف وأرق.

فالبحوث العلمية، لا يجوز لها أن تفضي إلى نتيجة كالوأد (وأد تقويم كمصطلح علمي...) (ص١٣٧)، أو إلى التجريم والتغريم. ففي ذلك خنق للرأي الآخر، ورفض للقول المخالف، وإساءة لقلادة الموضوعية التي يتزين بها الباحث. وأي ضير يلحق بنا إذا اجتهدنا في التحري والتنقيب، ولم نتوصل إلى نتيجة فاصلة؟ فليكن التوقف عند الشّك حتى تتوفر أسباب اليقين، وينقشع ضباب الريبة ويلوح مخرج مريح تنشرح له الصدور، وتهنأ به العقول.

وفي الأخير، أتمنى أن تحل ملاحظاتي محل الصّواب، وأن تكون مؤازرة لجهود الدكتور سبع أبو لبدة الذي أهنّئه تهنئة خالصة عن شجاعته لاقتحام دهاليز مثل هذه المواضيع المقلقة حقاً. وأستغفر الله من كل هفوة أو زلة.